الدكتور نور الدين شعباني

محاضرات في
تاريخ ممالك السودان الغربي

دار الجزائر

الدكتور نورالدين شعباني

أستاذ التاريخ الافريقي

محاضرات في

تاريخ ممالك السودان الغربي

دار الجزائر

ولقد أثّر هذا المناخ المتنوع تأثيرا مباشرا على الحياة النباتية في منطقة الأعلى السنغال والنيجر، حيث ترتب عنه غطاء نباتيا متنوعا حسب الفصول، ففي فصل البرد والجفاف والحرارة تكون الأرض جرداء والحشائش تحرقها الزوابع والحرارة، وتختفي فيها أوراق الأشجار وتصفر، وتتناثر على الأرض وتتصلب القشرة الأرضية ويبدو المنظر موحشا. وبمجرد حلول فصل الأمطار حتى تنتعش الحياة من جديد، وتكتسي الأشجار حلة خضراء، وتنبت الحشائش ويخضرّ السطح مبديا لونا زاهيا، وتتفتح الأزهار، وتنتعش النباتات الاستوائية الكثيفة[1].

لهذا يمكننا أن نقول بأن مناخ منطقة السودان الغربي وفي مجمله يعد من أجود المناخات في منطقة السودان الغربي كله، كما أن سطحها حسب شهادة حسن الوزان، يعد من أجمل ما يمكن أن تراه أعين رحالة زار معظم بقاع العالم مثله، حيث يقول بأن أجمل بلاد السودان هي تلك التي تمتد على طول نهر النيجر[2]. وبالتالي فليس صدفة إذا كانت مدن الممالك والإمبراطوريات الأولى في السودان الغربي قد ظهرت أولا على سهول ضفاف نهري النيجر والسنغال وذلك بفضل الظروف الطبيعية الخاصة التي وفرها هذان النهران، والتي ساعدت على قيام الحضارات الإفريقية الأولى. كما شكّل هذان النهران عاملا استقطاب السكان من كل الأجناس، سواء كانوا بربرا أوموريين دفعتهم حرارة الصحراء وجفافها إلى الهجرة نحو هذين النهرين، أو كانوا سكان إفريقيا الاستوائية والغابات الذين دفعتهم الرطوبة الخانقة والأمراض الفتاكة، والوحوش الضارية إلى التقرب من ضفاف هذان النهران، وهو ما جعل منطقة النيجر الأعلى والسنغال تعج بخليط من الأجناس والشعوب.

ثانيا: الخصائص البشرية:

إن البحث في موضوع العنصر البشري لمنطقة السودان الغربي يحتاج إلى كثير من التمحيص والجهد، وهذا نظرا للتنوع البشري للمنطقة بفعل الموجات المتعاقبة من الهجرات التي عرفتها المنطقة

---

(1) Dr Colomb ,Op.Cit, p3

(2) حسن الوزان، المصدر السابق، ص38 .

منذ أقدم العصور، فاختلط العنصر المحلي من الأهالي مع المهاجرين خاصة في المناطق العليا من نهر النيجر والسنغال التي تعد مناطق جاذبة للسكان بفضل ثرواتها الثمينة من ذهب وعبيد وعاج وغيرها التي جلبت التجار من كل حدب وصوب وأغرت الطامعين والمغامرين. بالإضافة إلى العامل التاريخي الهام والمتمثل في قيام أعرق الممالك والإمبراطوريات الإفريقية على ضفاف أنهارها. فاستقطبت عناصر من السودان الشرقي والأوسط واستوطنها التجار من المشرق والمغرب، وكوّنوا جاليات مختلفة أصبحت مع مرور الزمن عناصر سودانية اندمجت مع الأهالي.

لقد حاول الباحثون الأوربيون الذين اهتموا بشعوب المنطقة أن يتبعوا في دراساتهم منهجا يعتمد على التصنيف العرقي. فعندما قام الطبيب الفرنسي " كولومب" بدراسته لشعوب النيجر الأعلى صنفهم إلى ثلاثة أنواع رئيسية، حيث اتبع في تصنيفه الصفات الفزيولوجية كلون البشرة والشعر وشكل الوجه وغيرها. فقسّمهم إلى شعب الماندينغ ذوي البشرة السوداء، والشعر المجعد والمتصوف، والأنف المفتوح، والشفاه الغليظة، وطول القامة. ثم الفلاتة وهم ذوو البشرة الأقل سوادا وتميل إلى الحمرة، وشعر أملس، وقسمات الوجه الرقيقة. أما النوع الثالث فهم المور أو المغاربة ذوي البشرة البيضاء المائلة إلى السمرة، والقامة المتوسطة[1]. أما مواطنه "موريس دولافوس" فقد اتبع تصنيفا يعتمد على الانتماء العرقي لكل مجموعة، حيث قسّم المنطقة إلى أربعين قسما ينتمون إلى عنصرين أساسيين هما:العنصر الأسود والعنصر الأبيض، واللذان يتفرعان بدورهما إلى سبع عائلات عرقية، منها عائلتين من أصل أبيض وهما: الحاميون و الساميون، وخمس عائلات من أرومة سوداء وهم، التكرور، أو (التوكولور)، السنغاي، المندي، السونوفو، وسكان الفولتا[2].

وإذا رجعنا إلى المصادر العربية وحتى السودانية، فنجدها تعتمد على نفس هذا التصنيف، حيث نجد كلمات مثل"بيضان" و "سودان" و"تكرور" متكررة وشائعة في مؤلفات الجغرافيين والرحالة

---

(1) Dr Colomb , Op.Cit, p10

(2) Delafosse (M) ,Op.Cit, p113

العرب، وحتى المؤرخين السودانيين أمثال عبد الرحمن السعدي، ومحمود كعت، وأحمد بابا التنبكتي، وغيرهم. لهذا رأينا أن نعتمد في هذه الدراسة على هذا التصنيف.

1.العنصر الأبيض:

وتسميهم المصادر العربية البيضان، وهم ينحدرون من فرعين أساسيين هما: الساميون، وهم أبنا سام بن نوح عليه السلام من عرب وسوريين، والعبرانيين الذين هاجروا إلى المنطقة عبر مراحل متفرقة من التاريخ. أما الحاميون فيمثلهم البربر[1] والموريون وهم من أبناء حام بن نوح عليه السلام. وعموما فان العنصر الأبيض على اختلاف نسبه إلى سام أو حام إبني نوح، فهم يشكلون عدة مجموعات وهي:

أ. الصنهاجيون:

وهم شعب صنهاجة اللثام من البربر الذين يسكنون القفار وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، حيث أُبعدوا إلى تلك الأماكن منذ عصور ما قبل الفتح الإسلامي، وسكنوا بلاد البربر وأرض السودان، وقد اتخذوا اللثام شعارا تميزوا به عن غيرهم من الأمم، حيث تكاثروا وتعددت قبائلهم. وينقسمون إلى عدة فروع، ولعل أشهرها فرعان كبيران هما لمتونه وجدالة اللتان كانتا في صراع بينهما حول رياسة صنهاجة الصحراء[2]. وهناك من يطلق عليهم أيضا اسم الطوارق أو التوارق، نسبة إلى إحدى قبائل صنهاجة وهي"تاركة"، حيث حرّفها المشارقة إلى طوارق[3]، ويسمون هم أنفسهم بإيماجورن" أو "إيماشورن" مفرده "ايمشار" [4].

([1]) يذكر صاحب مفاخر البربر بأنه (لما تفرق أولاد نوح عليه السلام، أقبل البربر نحو المغرب الأقصى فقطنوه وتناسلوا، واتصلوا مع الأقباط من أرض مصر إلى المغرب الأقصى وجاوروا السودان مما يلي الصحراء). مجهول، مفاخر البربر.تحقيق: عبد القادر بوباية، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2005، طبعة أولى، ص 195.

([2]) ابن خلدون (عبد الرحمان)، كتاب العبر. تحقيق: خليل شحاتة ، مراجعة: سهيل زكار. دار الفكر، بيروت، لبنان، 1421هـ/2000م، المجلد السادس، ص 241.

([3]) حسن الوزان،المصدر السابق، ص 150(الهامش).

([4]) Gouvernement général de l’Afrique Française ,Op.Cit, p1.8

وقد تشكل الطوارق الذين ينتمون إلى منطقة السنغال الأعلى والنيجر عبر عدة موجات كبيرة من الهجرة البربرية، وأضيف إليهم خليط من الفولاتة والسنغاي. وكانت أهم هذه الهجرات خاصة بقبائل لمطة، هوارة، مسوفة، سمغارة أو (كيل تادمكة)، جدالة، لمتونة، وأوليدن[1]. وقد لعب الصنهاجيون دورا كبيرا في حوض السنغال الأعلى والنيجر من خلال حركة المرابطين التي سيأتي ذكرها لاحقا.

ب. الفلاتة:

ويعرفون أيضا بـ"الفولاني"،كما نجدهم في أحيان أخرى باسم "الفولوب"، وهم شعوب سامية جاءت من المشرق، لكننا نجد أن هناك اختلاف حول الأصل الذي ينتسبون إليه، فبينما ينسبهم غيرهم إلى الشعوب السورية والعبرية مع اختلاط مع بعض العناصر السودانية[2]، نجد الفلاتة ينسبون أنفسهم إلى العنصر العربي من القرشيين، حيث يذهب مؤرخوهم إلى أنهم ينحدرون من قبيلتي جهينة وتميم العربيتين اللتين هاجرتا من الجزيرة العربية في أول الأمر إلى الهند عقب فتنة بختنصر[3] ثم عادتا مرة أخرى إلى الجزيرة العربية بعد انتهاء الفتنة حاملتين معهما الأبقار والأغنام، لكن نظرا لقلة المراعي

([1]) Delafosse (M) ,Op.Cit, p 194

([2]) Delafosse (M) ,Op.Cit,p114

([3]) بختنصر بن نبولاصر هو أشهر ملوك الدولة البابلية العظام، حكم بين (605 و 563 ق م) قام بغزو بني إسرائيل بعدما دعا عليهم نبيهم "أرميا" الذي عصوه وانفضوا من حوله، وانتشرت فيهم المعاصي والمنكرات واستحلوا المحرمات، فسلط الله عليهم فتنة هذا الملك الجبار الذي غزا بلاد الشام وأرض العبرانيين، ودمر مملكة يهوذا، و خرب القدس، وسبى الكثيرين من بني إسرائيل في حملتين، فتفرقوا في الأرض.

حول هذا الموضوع انظر:ابن كثير(عماد الدين أبي الفدا إسماعيل) ،البداية والنهاية.مراجعة و تعليق :محمد تامر، شريف محمد، محمد عبد العظيم، محمد سعيد محمد.دار البيان العربي، القاهرة، مصر، 2006م، الجزء الأول، ص391 و ما يليها.

في شبه الجزيرة العربية واصلت القبيلتان هجرتهما إلى إفريقيا حيث تتوفر المراعي. فسلكتا الطريق المؤدي إلى أرض ليبيا، ومنها إلى إفريقيا الغربية إلى أن وصلتا إلى أودغست بأرض غانة[1].

وهناك نظريات أخرى تقول بأن الفلاتيين ظهروا نتيجة احتكاك الزنوج والحاميين بشعوب بيضاء منذ زمن بعيد، ومنها ما تنسبهم إلى الفرس النازحين من آسيا، ومنها ما تذهب إلى أنهم يهود [2].

ومهما يكن فإن الفلاتة هم قوم شبه بيض سنحتهم عربية، يحترفون رعي الأبقار، يعيشون في السودان الغربي منذ آلاف السنين، ويتمتعون بسرعة فائقة على الانصهار في المجتمعات التي يعيشون فيها [3] وينتشرون في إفريقيا الغربية ضمن أربع مجموعات أساسية هي:فلاتة منطقة مسينا، فلاتة منطقة غورما، فلاتة الساحل، وفلاتة فولتا[4].

2.العنصر الأسود:

وتسميهم المصادر العربية بالسودان، وإليهم تنسب بلاد السودان، كما يعرفون أيضا باسم الزنوج. ويمثلون الأغلبية الساحقة لسكان منطقة السنغال الأعلى والنيجر، وتعد هذه العناصر كثيرة العدد ومختلطة كثيرا فيما بينها [5].

ويعد المؤرخ العربي المسعودي المتوفى سنة346هـ/957م أول من تحدث عن نسب الحامي للسودان، حيث يذكر بأن نوحا عليه السلام دعا على ابنه حام بتشويه الوجه وسواده وأن يكون ولده عبدا لولده سام، فهمّ بأن يقتل امرأته التي أنجبت له هذا الولد الأسود، فمنعه سام، وذكّره بدعاء أبيه

([1]) الطيب عبد الرحيم محمد الفلاتي، الفلاتة في إفريقيا ومساهمتهم الإسلامية والتنموية. دار الكتاب الحديث، الكويت، طبعة أولى، 1415هـ /1994م، ص ص 16و17. . أنظر أيضا:الدمشقي (شمس الدين)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. طبعة ليبزيغ،1923 م، ص ص 240و241

([2])Delafosse (M) ,Op Cit, p114

([3]) طيب عبد الرحيم محمد الفلاتي، المرجع السابق، ص 241 .

(2) باري (محمد فاضل) وكريدية (سعيد إبراهيم)، المسلمون في غرب إفريقيا، تاريخ وحضارة.دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007م،طبعة أولى، ص24

([3])Delafosse (M) ,Op Cit, p114

عليه فغضب ونزع الشيطان بين الإخوة وحمل بعضهم على بعض، وكان آخر أمر حام أن هرب إلى مصر وتفرق بنوه، ومضى على وجهه يؤمُّ المغرب حتى انتهى إلى السوس الأقصى إلى موضع يعرف اليوم بأصيلا وهو آخر مرسى تبلغه مراكب البحر من نحو الأندلس إلى ناحية القبلة .

ويضيف المسعودي بأن بنيه ندموا على تركه للمكان، فخرجوا على إثره يطلبونه في النواحي التي قصدها، فوجدته طوائف منهم فبقوا معه إلى أن مات، فقطنوا بذلك البلد وسكنوا به وهم أصناف السودان[1]، كما ينسبهم نفس المصدر في موضع آخر إلى أولاد نبيط بن كنعان، ويقول بأن النبيط هو السواد[2].

ويضيف المسعودي بأن أبناء سودان بن كنعان يتفرعون إلى عدة أمم، وهم مختلفون في أفعالهم، ولهم ملوك ومنهم أجناس يلبسون الجلود وهم عراة، ومنهم من يتّزر بالحشيش، ومنهم قوم يعملون لرؤوسهم قرونا من عظام الدواب[3]. أما ابن خلدون فينسبهم إلى ولد حبش بن كوش بن حام، ويقسمهم إلى ثلاثة أقسام وهم: النوبيون، وهم أبناء نوبة بن كوش بن كنعان بن حام، الزنوج وهم أبناء زنجي بن كوش بن حام، أما القسم الثالث فهم سائر السودان الذين ينتمي إليهم سودان إفريقيا الغربية[4].

إن الشيء الملاحظ من روايتي المسعودي وابن خلدون أن السودان ينحدرون من ولد كوش بن كنعان بن حام، و أن كوش هو أول إنسان ذا بشرة سوداء من ذرية نوح عليه السلام. لذلك نرى بأن الكثير من المصادر العربية تسمي السودان بالكوشيين أيضا، كما نفهم أيضا من هاتين الروايتين بأن السودان ينقسمون إلى عدة جماعات تنتشر في مختلف أرجاء إفريقيا، ونستخلص أيضا بأن الموطن

([1]) المسعودي(أبو الحسن علي بن الحسين)،أخبار الزمان ومن أباده الحدثان و عجائب البلدان الغامر بالماء والعمران.دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1416هـ/1996م، ص 86 .

([2]) نفسه، ص 87 . وقيل بأنهم سموا نبيط لأنهم استنبطوا الأرض وعمروها، وكانوا أصحاب عمارة وتدبير. (الدمشقي، نخبة الدهر. ص266) .

([3]) نفسه،ص87

([4]) العبر، الجزء السادس، ص264.

الأصلي للسودان عند هجرتهم الأولى إلى إفريقيا كان سواحل المغرب الأقصى، أي شمال الصحراء الكبرى. وهو ما أكدته بعض الدراسات الحديثة التي استمدت مصادرها من روايات القبائل الموريتانية في منطقة ترارزة، ومفادها أن الشعوب السوداء كانت تعيش شمال مواطنهم الحالية، وكانت تصل مضاربهم إلى غاية جبال الأطلس المغربية، وأن من دفعهم إلى مواقعهم الحالية في جنوب الصحراء هو قدوم شعوب عمالقة بيض من سوريا[1]، وخاضوا حروبا مع السودان ودفعوهم نحو الجنوب، وأن هذه الأحداث عمرها أكثر من ألفي سنة.

ونلاحظ أيضا بأن نفس هذه الفرضية ترددها الروايات الشفوية لشعب السوننكي، إلا أنها تختلف معها في كونها ترجع سبب تلك الهجرات السودانية نحو الجنوب بسبب طبيعي وهو لجفاف الذي بدأ يحل بالصحراء الكبرى، والذي دفع الشعوب السودانية المزارعة إلى التوجه جنوبا نحو نهري السنغال والنيجر للبحث عن مصادر الري[2]. ومهما يكن فإن السودان يتفرعون إلى خمس عائلات عرقية منتشرة في منطقة السنغال الأعلى والنيجر وهي:

أ. التكرور:

ويعرفون بأسماء مختلفة منها التوكولور(Toucouleur) أو الساراكولي (Sarakhoulé)، ويعد هذا الشعب من أقدم الشعوب السودانية وأشهرها، إلى أن المشارقة وخاصة المصريين كانوا يطلقون اسم تكرور على كل بلاد السودان، وحتى في عهد أوج عظمة إمبراطورية مالي وشهرتها كانوا يخلطون بين هذه الدولة العظيمة ومملكة التكرور مما كان يغضب كثيرا ملك مالي "منسا موسى" ويصر على

([1]) ربما يقصدون بذلك العمالقة الهكسوس، وهم بدو رعاة طوال القامة، زحفوا خلال القرن 18 قبل الميلاد على مصر الفرعونية واحتلوها وأسسوا فيها الأسرة الفرعونية الثامنة عشر، ولكن بعد زوال حكمهم تفرقوا في الأرض. لكن المصادر التاريخية لم تذكر إن كانوا قد توجهوا نحو الغرب أم لا، ولكن لا توجد آثار لهياكلهم العملاقة في بلاد المغرب.ولا توجد أية إشارة كذلك تنفي وصولهم أرض المغرب.

([2]) Chavane (A.Bruno) , villages de l'Ancienne Tekrour.Editions Karthala, Paris, 1984, p29.

تصحيح هذا الأمر أمام الملوك المصريين، ويؤكد لهم بأن مملكة التكرور لم تكن سوى إقليم صغير من إمبراطورية مالي المترامية الأطراف[1].

إن هذه الشهرة التي اكتسبها التكروريون ربما تعود إلى أسبقيتهم إلى اعتناق الإسلام من بين كافة شعوب السودان الأخرى، حيث اعتنق ملكهم "وارجابي" أو "واردیابي" الإسلام منذ أوائل القرن الخامس الهجري /11م، أي قبل غزو المرابطين لمملكة غانة الوثنية.

فالمؤرخ الأندلسي أبي عبيد الله البكري يقول عن مدينة التكرور ((وأهلها سودان وكانوا على ما ساير السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم الصنم، حتى وليهم وارجابي بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها، وتوفي ورجابي سنة اثنتين وثلاثين وأربع مائة، فأهل التكرور اليوم مسلمون))[2]. وبذلك يكون إسلام ملك التكرور عام 432 هجرية الموافق لسنة 1040 أو1041 للميلاد، وكان التكروريون أكثر شعوب السودان تفاعلا مع بربر صنهاجة المسلمين في الشمال، وليس أدلّ على ذلك تحالفهم مع أمير المرابطين يحي بن عمر ضد قبيلة جدالة عام 448ه /1057م، إذ انضم الأمير التكروري" لبي بن ورجابي" إلى جيش يحي بن عمر[3].

ويعد التكرور طائفة من طوائف السودان، اقترن اسمهم باسم البلد التي سكنوها وهي التكرور[4] حيث كانت مواطنهم التي ما زالوا يقطنونها إلى يومنا هذا وهي منطقة "فوتا السنغالية (Fouta Sénégalaise)، لكن موطنهم الأصلي الأول أي إلى غاية القرن السابع للهجرة/13م فهو ضفتي نهر السنغال، حيث يخبرنا ابن سعيد بأن قاعدتهم كانت ضفتي نهر السنغال، وهي المنطقة

([1]) العمري(أبن فضل الله)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.تحقيق:حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ضبي، الإمارات العربية المتحدة، 1423ه/2002م، الجزء الرابع، ص108.

([2]) البكري(أبو عبيد الله)، المغرب فيذكر بلاد افريقية و المغرب. وهو جزء من الكتاب المعروف بالمسالك والممالك، طبعة دوسلان، ميزونوف، باريس1963، ص172.

([3])نفسه، ص 168 .

([4]) الدمشقي، المصدر السابق، ص 267.

المسماة بالتكرور، وبها اكتسبوا هذا الاسم[1]، لكنه يشير أيضا بأن معظمهم يسكنون الضفة اليمنى لهذا النهر، أي الضفة الشمالية، أما بالنسبة للضفة الجنوبية فعددهم قليل، كما كانوا ينقسمون إلى قسمين وهما سكان المدن وأهل البوادي[2].

لكن الأحداث التي عرفتها منطقة السودان الغربي خلال القرن الخامس للهجرة/11م، من خلال زحف شعب السوننكي نحو الشرق، وزحف الولوف نحو الغرب جعل أراضي التكرور تتقلص[3].

أما من حيث النسب، فبالرغم من أن معظم المصادر العربية تميل إلى أنهم حاميون كبقية السودان ويعود أصلهم إلى أبناء كوش بن حام[4]، فان ابن سعيد يرى بأنهم ينتسبون إلى قبيلة مغراوة البربرية[5]. ويدعمه الدمشقي في ذلك فيقول ((وكلهم يرجعون إلى مغراوة وسفارة))[6]. ونحن بدورنا نرى بأن هذه الفرضية ممكنة على اعتبار الاحتكاك الطويل بين التكروريين والشعوب البربرية الذي أدى إلى اختلاط الدم التكروري بنظيره البربري، حتى أضحى التكروريون شعوبا سوداء مختلطين بالدم الأبيض[7]. لهذا نجد بأن ياقوت الحموي عندما وصفهم في معجمه لم يذكرهم على أساس أنهم سودان خالصين وإنما قال عنهم بأنهم أشبه الناس بالزنوج[8]. وبهذا يمكن أن نقول بأن شعب التكرور

([1]) ابن سعيد(أبو الحسن المغربي)،المصدر السابق، ص 91. أنظر أيضا: أبو الفدا(عماد الدين إسماعيل): تقويم البلدان. طبعة دوسلان، باريس ، 1830م، ص153 .

([2])ابن سعيد، نفس المصدر، ص91.

([3]) Delafosse (Maurice) , Haut Sénégal _ Niger. Les peuples, les langues, l'histoire, les civilisations.Emile larose libraire, Paris ; 1912, tome2, pp235, 236.

([4]) محمد حسن(نبيلة)، في تاريخ الحضارة الإسلامية. دار المعرفة الجامعية،مصر،د ت،ص234.

([5]) المصدر السابق، ص 91.

([6]) الدمشقي، المصدر السابق، ص267.

([7]) Delafosse (Maurice) ,Les noirs de l'Afrique. Editions Payot, Paris, 1941, p17.

الحموي(شهاب الدين ياقوت)، معجم البلدان.مطبعة السعادة ، مصر، 1323هـ/1906م، المجلد الثاني، حرف التاء ص 39.

([8]) Gouvernement général de l'Afrique Française, Op Cit, p23

يمكن أن يكون قد تكوَّن من اختلاط الفلاتة و الموريين و الولوف والماندينغ، لكن تبقى صفاتهم السودانية الزنجية واضحة جدا[1].

ب.السنغاي:

إن مصطلح سنغاي لم يطلق في بداية الأمر على الشعب وإنما على البلد الذي يسكنه هذا الشعب، وهي المناطق المجاورة لنهر النيجر عند ثنيته، أو ما يعرف بالنيجر الوسط، وهي المنطقة الانتقالية بين عالم الماندينغ والسودان الأوسط. فالسونغاي يعيشون على طول ثنية النيجر في منطقة البحيرات ومنطقة تمبكتو إلى غاية جاو، ويمتدون إلى غاية النيجر الأسفل في منطقة ساي[2].

ويتألف هذا الشعب من فرعين أساسيين هما: "**زرما**" أو "**جرما**" والذين يقيمون في جنوب منطقة جاو في ضواحي ساي (Say)، ويشملون مدنا هامة مثل نياني (Nianey)، دوزو(Doso) وتيلابري (Tilabri). أما الفرع الآخر فهو "**دندي**"، وهو في النيجر الأوسط بالقرب من ساي[3]، وقد عرف هذا الشعب بعدة أسماء منها "سوناي بوري (Sonay borey) ، أو "سونوي تي (Sonoy tye)، وقد استعمل هذا الاسم لأول مرة من طرف محمود كعت للدلالة على الشعب وعلى البلد معا[4].

---

(1) نبيلة حسن محمود،المرجع السابق، ص 239.

Trimingham(Spencer) ,Islam in west Africa. Oxford - university press oxford, New York, 1962, p84

(2) نبيلة حسن محمود، المرجع السابق، ص238

(3) Mahmoud (Kati), Tarikh el fettach. Traduction Française par : O.Hodas et M.Delafosse, éditions, Ernest Leroux. Paris, 1913, p81.

(**3**) Trimingham(S) ,Op.Cit, p84

(4) ويعد سن علي أحد ملوك إمبراطورية سنغاي، وقد تولى الحكم سنة 869هـ/ 1464م، بعدما هرب من البلاط الملكي المالي أين كان أسيرا و لقب نفسه ب"شي كولن" أو"سن علي" التي تعني خليفة السلطان، وبذلك أعلن عن استقلال مملكة سونغاي عن سيطرة مالي، و قام بالاستيلاء على تنبكتو وجني ، لذلك يمكن القول بأنه المؤسس الحقيقي لإمبراطورية سنغاي.حول هذا الموضوع أنظر: **شعباني(نور الدين)**:علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي وآثارها الحضارية.رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط. جامعة الجزائر، السنة الجامعية:1426.1427هـ/2005. 2006م، ص22.

ونشير هنا إلى أن هذه الأسماء تعطى عادة لعائلات ملوكهم ثم يحتفظ بها الأحفاد فيما بعد، حيث نجد أن اسم "سونوي تي (Sonoy tye) مثلا هو لقب أعطي لأحفاد "سن علي" من السنغاي[1]، بينما نجد أن لقب دندي أعطي لأحفاد أحد ملوك سونغاي آخر، وهو "سن سليمان داما" أو "شن سليمان داما"، الذي كان يلقب بدندي وهو الذي ينتسب إليه السنغاي الذين يسكنون مدينة أرحام[2].

ويعد شعب سنغاي شعبا غير متجانس مثله مثل بقية الشعوب السودانية الأخرى، رغم أن المؤرخين القدماء كانوا يعتقدون لفترات طويلة بأنه شعب سوداني خالص. لكن الأبحاث التاريخية الحديثة بيَّنت بأنهم زنوجا لكنهم اختلطوا مع العناصر البربرية، من ساميين (عبرانيين) وفلاتة وموريين[3]،كما اختلطوا أيضا مع الشعوب السودانية الأخرى من إثنيات متباينة، حيث ارتبطوا بعلاقات مصاهرة مع غورمانشي موسي (Gourmanchi-mossi)، ومع بعض الصيادين من أدغال إفريقيا المعروفين بغو (Gow)، بالإضافة إلى ارتباطهم المحتمل بالسوركو(Sorko) وهم صيادو الأسماك الذين يكونوا قد هاجروا من الشرق من منطقة التشاد[4].

ج.الماندينغ:

ويطلق عليهم أيضا اسم "ماندي"، و"ماندينكا"، ويشكل الماندينغ القسم الأساسي لشعوب المجرى الأعلى لثلاثة أكبر الأنهار في إفريقيا الغربية وهي السنغال، غمبيا والنيجر. كما أنهم ينتشرون في كل منطقة السودان الغربي، وفي جنوب السنغال، وفي النيجر الأعلى انطلاقا من سواحل المحيط الأطلسي إلى غاية جمهورية نيجريا الحالية[5]. وإذا ما أردنا تحديد مجالات شعب الماندينغ جغرافيا فإننا

1

([2]) Mahmoud (Kati) :Op.Cit, p81.
([3]) Delafosse, Haut S- N, tome1 p238.
([4]) Trimingham (Spencer),Op Cit, p81.
([5]) Sik (andre) , Histoire de l'Afrique noire Budapest. , (Hongrie, 1962 ,2eme édition, tome 1, p48.)

نقول بأنه يحدها من الغرب مرتفعات فوتا جالون، ومن الجنوب تحدها غابات جنوب غينيا، ومن الشرق والشمال تحدها غابات السفانا السودانية[1].

ويتميز شعب ماندينغ ببشرة سوداء وشعر منكوش متصوف وأنف مفرطح وشفاه عريضة وفك بارز، بينما يتميز الجزء العلوي من أجسادهم بالطول[2]. فهم يمثلون إذن العنصر السوداني الخالص. وينقسم شعب الماندينغ أو الماندي إلى ثلاث جماعات فرعية هي:

1.ماندينغ الشمال:

ويعرفون بماندي تان (Mandi-tan)[3] ويمثله شعبا "البوزو" و"السوننكي". **فالبوزو** يمثلون لدى ماندينغ الشمال طبقة صيادي السمك والملاحين، ويقطنون أساسا في بحيرة ديبو (Débo) وذراع نهر النيجر المسمى دياغا(Diagha أو (Diaga) أو دياكا (Diaka) إذ لم يغادروا هذه المنطقة، واعتبروا أنفسهم مالكي أرضها ومياهها، وقد اختلط البوزو في عصور غابرة مع عائلات أخرى مثل عائلة "سوركو" من سنغاي وعائلة "باناما"، وهو ما أدى إلى تغيير في لغتهم ولهجتهم الأصلية[4].

أما **السوننكي**، فيعرفون أيضا بالسراكولي[5] أو الماركا، ويذهب دولافوس إلى أن موطنهم الأصلي كان في دياغا أو "مسينا" لكنهم اتجهوا إلى الشمال الغربي أين أسسوا مستوطنات زراعية هناك، بينما بقي جزء منهم مستقر في دياغا[6].

([1]) Niane (Temsir djibril) , Mise en place des populations de la haute guinée. In Revue éthiopique, (N°02, Avril, 1960, p40).

([2]) Dr Collomb ,OP Cit, p6

([3]) Niane (D T), Mise en place des populations de la haute Guinée p53.

([4]) Delafosse , Haut S-N, t1, p253

([5])Ibid,Pp255, 256 ; Abel (Holvelaque), Les nègres de l'Afrique sous équatoriale. Lecrosrier et Babé librairie éditeurs, Paris, 1889, p157.

(**5**) Delafosse (M) ,Op Cit, p256. In Revue électronique (Copyright) , Edité par : N'ko institute, N°C, année1999-2000, P6 et7 .Site électronique : http : //www.kanjamadi.com. Consulté le: 04-01-2008

لكن مواطنه أبل هوفيلاك(Abel hovelaque) فيقول بأن كل السراكولي أصلهم من بلاد غالام(Galam) على نهر السنغال، أو من كانياغا (Kaniaga) الواقعة في ضفة إحدى الفروع الغربية لنهر النيجر.

ومهما يكن فان هذا الاختلاف يؤكد بأن السراكولي قدموا من الجنوب، ذلك أنه خلال أواخر القرن السابع الميلادي، ولأسباب مجهولة قام عدد كبير منهم بالهجرة إلى غاية منطقة كينغي (Kingui) في الشمال، ثم في حوالي عام 750م، ترك أغلب هؤلاء المهاجرين كينغي وعادوا إلى منطقة أوكار أو "واغادو" أين أسسوا أول دولة للسوننكي، وهي مملكة "واغادو" أو"غانة"[1]. وقد تحدثت الروايات الشفوية للسوننكي كثيرا عن هذه الهجرة، حيث يقولون بأنها كانت بسبب الحروب وهروبا من بطش الأعداء، ورغم أنهم لم يذكروا من هم هؤلاء الأعداء، إلا أنهم يشيرون إلى أن السوننكي استقروا بعد ذلك في منطقة الوسط أو مايعرف بـ"ماندن القديم"[2]. حيث تفوقوا في بلاد ماندن الأوسط، واختلطوا مع أجناس أخرى من البربر والفلاتة، وشكلوا مجموعة عرفت بالوانغارا (Wangara) أو"ونجراتة" أو "واكوري" [3].

ويعد الونغارة عنصرا أساسيا في شعب السوننكي، حيث لعبوا دورا أساسيا في تاريخ غانة. ولقد كان الونغارة مجموعة سوداء وصلت إلى بلاد مندن الأوسط في وقت غير معروف، وانضمت إلى شعب مالي الذي كان تحت سيطرة إمبراطورية غانة واندمجوا معه، لكنهم بقوا يحتفظون بهويتهم،

([1]) Delafosse (M) ,Op Cit, p256.

([2]) سولومانا كونتي،مذكرة تاريخ ماندن القديم و الحديث

In Revue électronique (Copyright) , Edité par : N'ko institute, N°C, année1999-2000, P6 et7 .Site électronique : http : //www.kanjamadi.com. Consulté le: 04-01-2008

([3]) نجدهم عند البكري باسم جنجارة ومفردها جنجاري. المصدر السابق، ص163.. وكلمة وانغارا تعني في اللغات الإفريقية الأرض التي تكون فيها الشمس منخفضة ، و تغمرها دائما الشمس.

Revue encyclopédique ,par une réunion de membre de l'institut, édite par : Sédillot, librairie,(Paris, octobre-décembre 1829,tome44,p16).

حيث ميزهم المؤرخ السوداني محمود كعت عن المالنكي فقال: ((إن المالنكي هو الجندي و ونكر من يتاجر ويسعى من أفق إلى أفق[1].

ولقد كان الونغارة في بداية أمرهم عبيدا لملوك غانة [2] ولكن بفضل دورهم التجاري وتفوقهم على المالنكي تمكنوا من الحصول على امتياز يمنحهم الحق في ممارسة تجارة الذهب المسحوق المعروف بالتبر[3]. فجعلوا من أودغست التي استقروا بها محطة تجارية عظمى،كما لعبت بعض العائلات منهم مثل: فوفانا، تيميتي، باكايوكو، سيسي وحيدرة دورا كبيرا في نشر الدين والدعوة الإسلاميتين في المراكز التجارية، وهو ما منحهم مكانة كبيرة لدي ملوك غانة[4]. وعموما فإن الونغارة هم فرع من فروع السوننكي انتشرت في عدة مناطق من بلاد ماندينغ، كهضاب الماندينغ العليا، وحوض غمبيا في الجنوب، كما يجدون أيضا في الشمال في المناطق الصحراوية الغربية[5].

ومن فروع السوننكي أيضا نجد الديولا (Dioula) أو " الجيولا"، وينحدرون من سلالة السوننكي ولكنهم انفصلوا عنهم قبل أن يختلطوا مع شعوب الساحل من ساميين وموريين، وهو ما جعلهم يحتفظون بنمطهم الماندي الأصيل، فلغتهم تختلف عن المالنكي وعن كثير من لغات جيرانهم الماندي. ويؤكد الديولا أنفسهم هذه الأصالة من خلال قولهم بأن كلمة ديولا (Dioula) تعني عمق السلالة المندية[6].

إن الشيء الذي لاحظته عند دراستي لهذا الشعب هو ذلك الخلط الذي وقع فيه كثير من المؤرخين بالنسبة للمالنكي والديولا، فمنهم من يقول بأنهما شعب واحد ويختلفان في الاسم فقط،

([1]) Mahmoud (Kati) ,Op Cit, p65

([2]) Trimingham(S),Op Cit, p48

([3]) حسن محمد نبيلة،المرجع السابق، ص109 . ونشير إلى أن ملوك غانة كانوا يستحوذون على معدن الذهب ويتركون للرعية الذهب المسحوق المعروف بالتبر حتى لا يفقد الذهب قيمته (البكري:المصدر السابق، ص177). ويضيف البكري (نفسه، ص 87) ومن يرسني يجلب السودان العجم المعروفين بنونغمراته وهم تجار التبر إلى البلاد.

([4]) Adreas (W.Massing), The wangara, and old diaspora in West Africa. In revue : Cahier d'études Africaines, N°02, volume 40, année : 2000, pp de 281 au 308.

([5])حسن محمد نبيلة، المرجع السابق، ص237.

([6]) Delafosse (M) , H S-N, tome1, p280

ومنهم من يجعلهما شعبين مختلفين بحيث يتفرعان من ماندينغ الوسط.لكن يبدو أن ديولا أو"جولا" هم عبارة عن مجموعة من العشائر المجتمعة في شكل قرى، والتي تنتمي إلى شعب المالنكي،كما أنهم تمركزوا على شكل جاليات صغيرة في المراكز التجارية الهامة و نقاط عبور القوافل التجارية التي تخرج من مالي باتجاه مناجم الذهب في "بامبوك" و"غالام"أو باتجاه الغابات الاستوائية[1]. ذلك لأن ديولا يمتهنون التجارة المتجولة حيث أن كلمة ديولا في لغة المانكي تعني تاجرا[2].

وقد اعتنق الديولا الإسلام في وقت مبكر، واتخذوا نظاما عشائريا[3]، وعندما بلغت الإمبراطورية المالية أوجّ قوتها خلال القرن السادس للهجرة/13م، اتخذ الديولا منها قاعدة تجارية سمحت لهم بالتعامل مع العالم العربي الإسلامي، كما كسبوا مودة الملوك الأفارقة حيث أقاموا معهم علاقات جيدة سمحت لهم بممارسة نشاطهم كمفاوضين تجاريين[4].

ويشير موريس دولافوس إلى انه من الصعب تحديد الوقت أو الظروف التي ظهر فيها الماندي لأول مرة في الأرض التي يقطنونها الآن تحت اسم ديولا، ويذكر بأن مختلف الأهالي في مناطق كونغ (Kong)، غميني(Guimini) وغيامبالا(guiambala) أو ديامالا (Dyamala) قد أخبروه بأنهم يجهلون تاريخ استقرارهم في هذه المناطق، كما أن الرواية الشفوية الأكثر شهرة في المنطقة تقول بأنهم قدموا من الغرب، وتذهب إلى أنه منذ عدة قرون كان الديولا يأتون إلى منطقة كونغ من أجل ممارسة التجارة، وشيئا فشيئا وجدوا البلد مناسبا لهم فاستقرت بعض العائلات منهم، ونشرت من حولها تقاليدها ونمط لبسها وديانتها التي كانت الديانة الإسلامية.

([1]) Millet (Eric) et Maunaud (Jean Luc) , Mali.ditions Olizane, Genève, Suisse, 2ème édition, 2007, p90.

([2]) جبريل(تمسير نياني)، مالي والتوسع الثاني للماندينغ. ضمن كتاب: تاريخ إفريقيا العام، صادر عن منظمة اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988م، المجلد الرابع، ص129.

([3]) يمكن أن نعرف العشيرة على أنها مجموعة عائلات منبثقة من جد واحد، أوهي مجموعة أحفاد لسلف مشترك يعيشون في أماكن متفرقة. وكان الماندينغ يطلقون على العشيرة اسم"لوا ودو" .

([4]) Millet (Eric) et Jean (Luc) ,Op Cit, p90.

وقد نمت هذه المستوطنات الجديدة بفضل وصول مستوطنات مندية أخرى جديدة، وخاصة عندما تزوّجوا مع نساء القبائل المحلية مثل بوبو(Bobo)، كبارهالا (Kparhala)، أكني (Agni) وخاصة السينوفو (Senoufo)، ومن خلال زواج هؤلاء الماندي مع نسوة من عناصر عرقية مختلفة ظهرت قبيلة ديولا[1]. فهي إذا لا تمثل العنصر المحلي الخالص كما يدعيه الديولا أنفسهم، ويمكن أن نقول أيضا بأن الديولا الخالصين (الأقحاح) عددهم قليل جدا مقارنة بشعوب البلاد التي يسكنونها، لكنهم يتميزون بذكاء أكبر عموما من السكان الأصليين، كما يتميزون بعقلية متفتحة أكثر وأكثر ثقافة خاصة بعد اعتناقهم الإسلام[2].

ويتميز الديولا الأصليون بعدم وضع الوشم على أجسادهم عكس أولئك الذين ولدوا من زواج مختلط بين ديولا وسينوفو، والذين يدعون بسورونغي(Sorongui) فقد كانوا يوشمون خدودهم[3].

ويقطن الديولا مراكز هامة شرق باني وفي فولتا العليا وفي غينيا العليا[4]، ويعتبرون من كبار الرحالة التجار حيث يتفوقون في ذلك على جيرانهم الونغارا إلى درجة أصبح فيها اسم ديولا مرادفا لتاجر. ويتمركز الديولا في المدن الهامة ضمن جاليات مجتمعة وسط السكان المحليين من المزارعين الوثنيين، وهو ما مكنهم من التضامن أكثر فيما بينهم وإقامة مجتمعات قائمة على أساس ديني وتجاري، وهذا ما زاد في قوتهم ودرجة تأثيرهم على السكان الذين يعيشون بينهم[5].

([1]) Delafosse (Maurice) ,Essai manuel de la langue Mandé ou Mandingue. Ernest Leroux éditeur, Paris, 1901, pp3, 4

([2])Delafosse (Maurice) ,Essai manuel, p4

([3]) Loc Cit.

([4]) أنظر الخريطة رقم5 ضمن الملاحق.

(**5**) حسن محمد نبيلة، المرجع السابق، ص 238. و تجدر الإشارة إلى أنه لا يجب أن نخلط بين ديولا التي نحن بصدد الكلام عنها وهي قبيلة ماندية مع الديولا آكلي لحوم البشر، والذين يسكنون أعالي نهر كفالي، ولا مع ديولا أو "يولا" الذين يسكنون كازامانس، ولا مع تجار القوافل في السنغال الأعلى، والذين تلقبوا بديولا وهم ليسوا ماندين بل أن أغلبهم من السراكولي، كما نجد أيضا أن هناك من يطلق اسم "بمبارا" على الديولا الموجودين في كونغ وهذا خطا.حول هذا الموضوع أنظر: Delafosse(M) ,Essai manuel,p5 et 6

وقد كانت جماعات ديولا تجوب السودان الغربي، وتسيطر على تجارة الذهب بفضل تميزهم بالصدق والأمانة والثقة، وسيطروا أيضا على تجارة نبات الكولا الذي كان يعد نباتا مقدسا لا يجوز لغيرهم تجارته[1]. وكان هذا الامتياز قد تحصلوا عليه من ملوك مالي نظرا لعلاقتهم الوطيدة بهم، بالإضافة إلى أخلاقهم وأمانتهم وفي المقابل كانوا يحصلون على النسيج والمصنوعات الزجاجية والجلود المدبوغة والملح. كما كانوا بالموازاة مع نشاطهم التجاري يشكلون دعاة ماهرين للإسلام في المناطق التي يدخلونها، وخاصة المناطق الجنوبية الغابية[2].

2. ماندينغ الوسط: *ويتفرعون إلى أربع مجموعات هي:*

أ. كاغورو (Kagoro):

ويعد الموطن الأصلي لهم هو باغانا (Bagana)[3] و ربما هذا الإقليم هو الذي ذكره الإدريسي باسم بغامة بقوله: ((وأهل بغامة سودان برابر قد أحرقت الشمس جلودهم وغيرت ألوانهم، ولسانهم لسان البربر، وهم قوم رحالة وشربهم من عيون يحفرونها في تلك الأرض عن علم لهم بها وتجربة في ذلك صحيحة))[4].

وكان الكاغورو ينتشرون في منطقة تمتد إلى غاية غرب وجنوب غرب "دياغا"، بحيث يشكلون الحد الفاصل بين المواطن الأصلية للسوننكي والمالنكي، لهذا فقد شهدت أرضهم صراعات طويلة ودامية بين الصوصو والمالنكي،كما تعرضوا للاحتلال من طرف شعب"البمبارا" لهذا نجد بأن معظم

---

(1) Camara (Mamadou) , Parlons Malinké .Editions l'harmattan(Paris, 1999, p11.

(2) يعد إقليم بغانا الإقليم لذي وجدت فيه عاصمة غانة"كومبي صالح" التي كانت تسمى عند السوننكي "واغادوغو"، أما الماندينكا فكانوا يطلقون عليها اسم"باغانا" .Trimingham(S) ,Op Cit, pp48 et 49

الإدريسي، المصدر السابق، ص43

(3) يعد إقليم بغانا الإقليم لذي وجدت فيه عاصمة غانة"كومبي صالح" التي كانت تسمى عند السوننكي "واغادوغو"، أما الماندينكا فكانوا يطلقون عليها اسم"باغانا" .Trimingham(S) ,Op Cit, pp48 et 49

(4) الإدريسي، المصدر السابق، ص43.

الكاغورو الأصليين قد ذابوا في شعوب السوننكي والبمبارا والمالنكي، ويتكلمون لهجة تميل بشكل واضح للغة السوننكي[1].

ب.الباماتا أو"البمبارا":

إن كلمة "**بمبارا**"هي تحريف لكلمة "**باماتا**" وهي التسمية الأصلية لهذا الشعب، والتي تعني الصخرة ذات النتوءات الحادة، والأوربيين هم الذين أطلقوا على هذا الشعب اسم بمبارا[2]، وهو نفس الاسم الذي نجده عند عبد الرحمان السعدي في تاريخ السودان، حيث كان المسلمون يطلقونه على السودان غير المسلمين.

أما الموطن الأصلي للبمبارا فهو منطقة نهر النيجر عند خطوط طول 8 و 10 درجات غرب خط غرينتش، أي يمتد من الضفة اليمنى للنيجر الأعلى وبالضبط من مرتفعات سيغيري (Siguiri) إلى غاية الضفة اليسرى من أعالي منطقة باغبي (Bagbé)[3] التي تبدأ منها أراضي شعب السينوفو، وبهذا فان موطنهم يضم أيضا نهر باولي (Baoulé) و إقليم واسولو(Ouassoulo) من الجنوب، وقد تمتد مجالات بمبارا إلى غاية المجرى الأسفل لنهر السنغال، وبذلك فإن أراضيهم تشكل مثلثا قاعدته إلى الشمال وزاويته إلى الجنوب. ويعد البمبارا سودانا مولدين، رغم أن بعضهم يمثل النوع السوداني الحقيقي، بينما البعض الآخر يتميز ببشرة أقل سمرة، أما شعرهم فهو أقل تصوفا من غيرهم من الزنوج، وتكسو ذقونهم لحية كثيفة، ولهم قامة متوسطة عموما لكنهم أقوياء جدا، وتبقى قبيلة كوربارس (Kourbaris) تمثل النموذج البمباري الحقيقي الذي لم يختلط بأقوام أخرى[4].

ومن صفات البمبارا قلة تحضرهم وميلهم إلى التوحش، وهذا بسبب انعزالهم وعدم تعاملهم مع الأجانب، بالإضافة إلى قوة بأسهم وشدتهم التي جعلت منهم أقواما محاربين فيما بينهم على الدوام

([1])Delafosse (M) : Haut S – N, tome 1, p282

([2]) Pâques (Viviana) : Les Bambara Éditions l'Harmattan, (Paris, 2005, p17).

L'épopée Bambara de Ségou, Recueillie et traduite par :Lyliane Kesteloot, avec la collaboration d'Amadou Traoré et Jean –Baptiste Traoré, édition orizons, Paris, 2010 , p8.

([3]) وهي منطقة تقع جنوب غرب جمهورية غينيا الحالية وتنتمي إلى إقليم كيسيدوغو (Kissidougou)

([4]) Abel (Hovelaque) ,Op.Cit, p160 - Paques (Viviana) :Op.Cit, p5

كما يتعاطون النهب والفتك والسرقة، ويتحارب البمبارا بالنبال التي يتقنها رجالهم ونساؤهم على حد سواء[1]. أما لغتهم فهي قريبة من لهجات كل من الديولا والخاسونكي والمالنكي، التي تنتمي إلى اللغة المندية، لكنها تختلف كثيرا عن لغات الصوصو والسوننكي وبدرجة أكثر لغة الفلاتة[2].

ج.الخاسونكي:

وهم من شعوب السودان الغربي، حيث يعدون خليطا من الشعوب المورية والمندية، ويتمركزون في المناطق التي تفصل بين جيرانهم الكاغورو وسكان الحوض (الصحراء)[3]. ولقد ظهر هذا الشعب لأول مرة مع نهاية القرن الخامس للهجرة/11ميلادي على الضفاف الشمالية لنهر السنغال في الوقت الذي كان فيه المالنكي يتمركزون في الضفة الجنوبية له، ولقد كان ظهورهم نتيجة امتزاج عدة فروع من الفلاتة مع الزنوج من السكان المحليين في منطقة السنغال الأعلى وهم الكاغورو، أو نتيجة اختلاط العنصر السوداني مع المور[4].

وحسب الروايات المحلية فان ظهور الخاسونكي(khassounké) أو الكاسونكي(Kassounké) كان نتيجة زواج راعي فلاتي يدعى أمادو حاوا (Amadou haoua) من امرأة من الباناما أو(البمبارا) تابعة لأسرة كان أمادو هذا يرعى لها بالغنم[5]. لهذا ونتيجة هذا الاختلاط فان عدد كبير من الخاسونكي ورغم صفاتهم الزنجية المتمثلة في شعرهم السوداني المتصوف فإنهم أخذوا صفات الفلاتة والمور، حيث أن بشرتهم ليست سوداء وإنما نحاسية[6].

([1]) مارمول (كربجال),المصدر السابق، ص52

([2]) Pâques (Viviana),Op.Cit, p14.

([3]) Muhammad Zyhdi Yakan, Al manac of African peoples and nations. Editions: Transaction book, New Jersey, (united stats of America, 1995, p405

([4])Abel (Hovelaque) ,Op Cit, p154

([5]) Delafosse (M) , Haut S – N ; tome 1 ; p290.

وبما أنه خلال القرن الخامس للهجرة/11م لم يكن الباناما قد وصلوا بعد إلى منطقة "كايس"، فموريس دولافوس (نفس المكان) يعتقد بأن الرواية أخطأت عندما ذكرت بأن المرأة كانت تنتمي إلى الباماناو، بل يرى بأنها ربما كانت تنتمي إلى الكاغورو.

([6]) Abel (Hovelaque) ,Op Cit, p154.

د. المالنكي أو الماندي[1]:

يعد هذا الشعب أكثر شعوب الماندينغ شهرة على الإطلاق إلى درجة اقترن فيها مصطلح ماندينغ بالمالنكي في كثير من الحيان، بل أن معظم المراجع التاريخية أصبحت تذكر مصطلح ماندينغ عندما تتحدث عن المالنكي، رغم أن المالنكي ما هم إلا فرع من فروع المالنديغ الكثيرة وهم سكان مالي[2]. وعلى العموم فإن مصطلح مالنكي كان يطلقه الفلاتة والسراكولي على الماندينغ الذين يسكنون منطقة "بامبوك" ثم أنتشر بعد ذلك[3].

وتعد بلاد ماندينغ القديم هي نفسها الأرض التي شكلت الموطن التمهيدي للمالنكي، وهو ما زاد في ارتباط اسم الأرض بشعب المالنكي أيضا[4]. أما مواطن المالنكي فهي الأرض التي تضم حوض باخوي، وكل المقاطعة الموجودة بين باخوي الأعلى والنيجر جنوب مدينة كيتا وشمال غرب بماكو الحاليتين[5]. أما موطنهم الأول فكان في كانغابا (Kangaba) وهي قرية موجودة على بعد قليل من الضفة اليسرى لنهر النيجر قبالة بماكو[6].

لكن المالنكي لم يستقروا في موطنهم القديم هذا، وإنما انتشروا بعد ذلك (خاصة منذ بداية القرن السابع للهجرة/ 13 ميلادي) فيعدة مناطق مثل بوري (Bouré) سنغران (Sangaran) وغنغران (Gangaran)، أين أصبحوا يشكلون أغلبية سكان تلك الإمارات والمستوطنات التي أسسوها على

([1]) يذهب بعض المؤرخين إلى أن الكلمة مشتقة من "ماري"أو"مالي" وتعني فرس النهر، ويرى آخرون أن الكلمة مكونة من قسمين هما: ما:و تعني أم و دنك(دنغ): و تعني ابن Delafosse: H S –N, tome1, p291

([2])David Conrad ET Djanka Tassey: Sondjata: a West African epic of the Mande peoples, published by: Hachette publishing, Andianpolis, U SA 2004, p15.

([3]) Abel (Hovelaque) ,Op Cit, p136

([4]) Niane (Temsir djibril), Mise en place des populations de la haute guinée. In revue Ethiopique.N°02-Avril-1960, PP de 40 au 50.

([5])Delafosse,(M), Op Cit, p291

([6]) Ibid,p291

الضفة اليمنى لنهر النيجر، وكذا في شمال فوتا جالون والبامبوك ومنطقة كيتا، بالإضافة إلى المنطقة الممتدة بين باماكو وسيغو الحاليتين[1] .

ولكن بداية من حوالي عام 1230ميلادي/627 هجري، وهو تاريخ ظهور "سوندياتا كيتا" على مسرح الأحداث، بدأت هجرات المالنكي تتراجع وشكلوا من كانغابا مستقرا لهم، ونقطة الانطلاق لإمبراطورية حقيقية. ولكن هذه المرة سيكون توسعهم بشكل منظم، وذا طابع استعماري استيطاني اقتضته متطلبات بناء الإمبراطورية المالنكية، حيث وصلوا إلى مناطق بعيدة عن موطنهم الأصلي مثل توبا(Touba) ومانكونو (Mankono) في جمهورية كوت ديفوار الحالية، وإلى محور "سيغيري . دينغيراي (Siguiri . Dinguiray) في جمهورية غينيا الحالية، بالإضافة إلى نهري السنغال وغامبيا[2] وأصبحوا يشكلون هناك مجموعة متجانسة من السكان فيما يعرف اليوم بجمهوريات غينيا وغامبيا، كما أصبحوا يشكلون أقليات معتبرة في جنوب جمهورية السنغال وشمال غرب كوت ديفوار الحاليتين، بينما يتجمعون في شكل جالية كبيرة في جنوب شرق وجنوب غرب جمهورية مالي الحالية وخاصة في منطقة كايس[3].

وقد عرف المالنكي خلال العصور الوسطى بكونهم شعبا محاربا وفاتحا، بالإضافة إلى كونهم تجارا كبارا[4]. وعندما ذكر المؤرخ السوداني "محمودكعت" المالنكي ركز على صفة الفروسية والحرب التي يبدو أنها كانت خصلة تميزهم عن الونغارا، فهو يقول بأنك إذا سألت عن الفرق بين مالنكي والونغارا فاعلم بأن الونغارا والمالنكي هم من أصل واحد، لكن المالنكي تطلق على المحاربين بينما الونغارا تطلق على أولئك الذين يمارسون التجارة المتنقلة من بلد إلى بلد[5].

([1]**7**) Delafosse,(M) Op Cit, p291

([2])Ibid, p291

([3]) Cuello (Gabriel) et Robin (Loïc), Les Malinké de Kodugo. Publié par : L'harmattan éditions,Paris, 2005, p9

([4]) Sory (Camara) , Gens de parole , Essai sur la condition et le rôle des griots dans la société Malinké. Editions Karthala, Paris, 1992, p17.

([5]) Kati (Mahmoud) ,Op.Cit, p65

ويعد المالنكي أحد أكثر شعوب السودان الغربي شهرة لأنهم ارتبطوا بالملحمة التي صنعها أحد أبنائهم وهو سونديانا كيتا الذي بنا إمبراطورية واسعة وأوصل اسم وصوت وثقافة المالنكي إلى خارج إطار مندن القديم، ووصل بهم إلى غاية الصحراء الكبرى شمالا، وإلى المحيط الأطلسي غربا، وإلى غابات السفانا جنوبا[1]. بل أكثر من ذلك، فإن كلمة مالنكي ما هي في الحقيقة إلا لفظ بلغة الفلاتة ويقصد به شعب إمبراطورية مالي القديمة، بينما المالنكيون أنفسهم يفضلون أن يطلق عليهم اسم مانينكا (Maninka)[2].

كما أن لغتهم المالنكي تعد واحدة من أكثر لغات إفريقيا الغربية انتشارا في الأوساط المندية، وتعد أقدم اللغات وأكثرها حفاظا على أصالتها وعدم اختلاطها بلغات أخرى والأكثر تداولا في المنطقة، ومن الخصائص التي سهلت انتشاها، اتخاذها مخارج الحروف بأشكال مختلفة وهو ما جعل الكلمة الواحدة فيها تدل على معاني عديدة، بالإضافة إلى تميزها بطابع نغمي موسيقي جذاب[3]. بحيث تصفها الروايات الشفوية المحلية بأنها لغة واضحة، أما اللسانيين في العصر الحديث فإنهم يؤكدون بأنها أكثر اللغات سهولة للتعلم بفضل بساطتها، وعلاقاتها باللغات الأخرى للسودان الغربي، وبذلك تبنتها الشعوب الأخرى بسرعة، وهو ما جعلها تعد من العوامل التي ساهمت في توحيد شعوب إمبراطورية مالي منذ القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، وإلى غاية أواخر القرن التاسع للهجرة/15م[4].

هـ .السينوفو:

ويعد شعب السينوفو شعبا أصيلا في المنطقة سواء في النيجر الأعلى أو في السنغال أو حتى في كوت ديفوار الحالية، حيث تجمع الروايات الشفوية على أنهم السكان القدماء لتلك الأرض، كما

([1]) Onyeka (Nwanunobi), Malinké,The Rosen publishing group, I N C,(New York, US A, 1980

([2]) يوجد ثلاثة أسماء تطلق على المالنكي الذين يعيشون قرب نهر النيجر الأعلى وهي :مالنكي ، ماندينكا ومانينكا، بينما يوجد هناك عدد كبير من المجموعات المالنكية الأخرى وتسمى المندي :

Onyka , Op.Cit p10

([3]) Ibid , p12 - Delafosse (Maurice), Essai de manuel pratique de la langue Mandingue,p222.

([4]) Onyeka (Nwanunobi),Op Cit, p 12.

تروي هذه الروايات بأن السينوفو كانوا في الأصل صيادي الفيلة وكانوا يسكنون إمارة ماسيغي (Massigui) في محور بوغوني (Bougouni) الحالية[1]، ثم تم إبعادهم من هناك بسبب غزو البامانا (البمبارا)، حيث انتقلوا إلى أراض أخرى للصيد. فمنهم من توجه إلى سيكاسو، والآخرون اتجهوا نحو شمال كوت ديفوار الحالية والباقون اختلطوا واندمجوا مع البامانا[2]. ورغم ذلك فان السينوفو بقوا محافظين على صفاتهم الأصلية، ولم يعد يربطهم بالبامانا سوى اسم بمبارا الذي يطلقه عليهم المسلمون أو اسم بامانا الذي يطلقونه هم على أنفسهم[3].

إن شعب الماندي يعتبر السينوفو قوم همج وآكلي لحوم البشر، لذلك يمكن أن نعتقد بأن السينوفو ربما يكونوا هم أنفسهم أولئك الذين ذكرتهم المصادر العربية وهم سكان الجنوب المعروفين باللّملم أو (الدمدم) أو (الدمادم)، والذين وصفتهم بأنهم كفار مهملون يأكلون لحوم البشر، ولا يكادون يفقهون قولا، وأنهم أشبه بالحيوان[4].لكن يبدو أن هذه الصفات مبالغ فيها بالنسبة للسينوفو خاصة إذا ما علمنا بأن أغلب المصادر العربية نقلت معلوماتها عن تجار وفقهاء ودعاة ونبلاء المندي والديولا الذين كانوا ينظرون إلى الشعوب الجنوبية الكافرة نظرة استعلاء واحتقار.

و حسب دولافوس فأن شعب اللملم الذي ذكرته المصادر العربية يبدو أنه جزء من شعب سينوفو وليسوا كلهم متوحشون، حيث أن هؤلاء اللملم يضمون خليطا من شعوب متوحشة وبدائية، ويشترك معهم في هذه الصفة حتى أجداد الجالونكي، والبومانا الحاليون،وأجداد الكاغورو أيضا[5]

([1]) بوغوني Bougouni، مدينة في جمهورية مالي الحالية و تعد مركز منطقة "سيكاسو Sikasso" الواقعة على بعد 170كلم جنوب شرق بماكو عاصمة مالي.

([2]) Delafosse (Maurice), H S-N, T1, p300

([3])Delafosse (Maurice), H S-N, T1,p301.

([4]) الدمشقي(شمس الدين الأنصاري)،نخبة الدهر في عجائب البر و البحر. طبعة ليبزيغ Libzig ، 1923، ص 240 ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص91.

([5]) Delafosse (M) ,Op Cit, p302

و. سكان الفولتا:

ويضمون سبع مجموعات هي: مجموعة الموسي (Mossi) أو (الموشي)[1]، اللوبي (Lobé)، كولونغو(Kolango)،باريبا(Bariba)وغورونسي (Gourounsi). بالإضافة إلى شعوب أخرى يسكن جزء منهم في السودان الغربي مثل التومبو(Tombo) والبوبو (Bobo)، والذين نجد عندهم الكثير من الصفات المشابهة للسينوفو، وخاصة صفة الإرتباط بالأرض والمهارات الزراعية والصناعية، ونزعتهم الرهيبة نحو الاستقلال والحرية[2].

وعلى العموم فإن سكان الفولتا يعدون أقدم سكان منطقة السنغال الأعلى والنيجر، شأنهم في ذلك شأن السينوفو، وينتشرون في كل المنطقة المنتمية إلى حوض فولتا الممتدة من مرتفعات هومبوري (Hombori)[3] في الشمال إلى غاية المناطق القريبة من الغابات الاستوائية في الجنوب[4]. لكن الشيء الملاحظ هو أن شعوب الفولتا لم تحافظ كلها على نفس مضاربها، وإن كانت بعضها لم تغير مكان إقامتها، فإن البعض الآخر غيّر إقامته الأصلية، ومنهم من اختلط مع المهاجرين القادمين من كل الاتجاهات، والتي فرضت سيطرتها على الشعوب القديمة في المنطقة و شكلت مجموعات سياسية مختلفة، منها تأسيس أول إمارة للموسي من طرف المهاجرين الغزاة القادمين من شمال واغادو(غانة) وهم عائلات كل من داغومبا،مامبورسي وناكومسي. ومنها أيضا مملكة غولمانس (Gulmance) التي

([1]) ويعد الموسي أهم هذه المجموعات، حيث تنتمي إلى عائلة الفولتا الكبرى، وينتشرون اليوم في فولتا العليا ويوجدون بعدد قليل السودان. ولم يتأثر هذا الشعب بالديانة الإسلامية، وليس لهم أجداد من أصول بيضاء، وقد أسسوا خلال تاريخهم ثلاث دول امتازت بنظامها السياسي والإداري المحكم. ويعد الموسي شعبا مزارعا ومن الرعاة، ثم تحولوا إلى تجار بعد ذلك .وكانت مملكة الموسي قد غزت إمبراطوريات عظيمة مثل مالي وسنغاي خلال أوج قوّتهما، كما قامت بنهب تمبكتو عام 733هـ/ 1333م، وهجموا على مسينا وخربوها عام890 هـ/ 1486م .

Gouvernement Général de l’Afrique occidentale Française, Le soudan.p25

([2]) Gouvernement Général de l’Afrique occidentale Française, Op Cit, pp25, 26.

([3]) هي سلسلة جبلية صخرية متواجدة في منطقة "موبتي Mopti" المالية قرب قرية "هومبوري" على بعد 100كلم من مدينة "دوانتزا Douentza " الحالية، ويبلغ ارتفاعها 1155متر، وتعد قمة " توندو Tondo " أعلى قمة في مالي.

([4]) Delafosse (M) : H S-N, T1, p302

أسسها مجموعة من المهاجرين الوافدين من شرق نهر النيجر، المعروفون بالمبا(Bemba) أو بوريسمبا (Bouricimba)[1].

لهذا يمكن ان نقول بان السودان الغربي ظل يشكل طبيعية و بشرية منسجمة من خلال التباين الاثني و التضاريسي الذي يعد عاملا رئيسيا في بروز التنظيمات و الكيانات السياسية، كما أن حركة الانسان المستمرة و هجراته على هذا السطح منح فرص ملائمة جدا لنقل التجارب و تبادل الخبرات بين شعوب المنطقة و هو ما كان في صالح ظهور حضارات راقية فيها.

([1]) Madiega (Georges Yenouyaba) : Chronologie succincte de l'histoire du Burkina Faso (Ex Haute-volta). In site électronique: http://www.histoire-afrique.org/rubrique3.html. Consulté le : 28-09-200